رحلة رجل من البلاط القاجاري

تقديم: علي قاضي عسكر

لما للرّحلات من فوائد ثقافيّةٍ وتأريخيّةٍ.. طالما كانت مصدراً يرجع إليه في كثيرٍ من البحوث والكتابات.. تفتح مجلّتنا باباً جديداً خاصّاً برحلات الحجّ.
إدارة التحرير

المقدّمة:

إنّ كتابة الرحلات، سُنّة موجودة منذ القدم، وإن كانت بشكل محدود، بين الأقوام والملل في الدنيا، ولكنّها تطوّرت بشكل ملحوظ في القرنين الأخيرين، فقد انطلق كُتّاب الرحلات، كلٌّ حسب اختصاصه وتوجّهاته الفكرية الىٰ شرح ووصف الأماكن والآثار والأبنية التأريخية، والمواقع الجغرافية، وعادات وتقاليد القرىٰ والمدن، والحوادث والوقائع المهمّة والمثيرة في الطريق... الخ.

ومن بين الرحلات، تتميّز رحلات الحج بأهمية وجاذبية أكبر، فهي تنقل لنا

نقاطاً مهمة وحسّاسة عن كيفية أداء الحجيج لمناسك الحج في القرون الماضية، وأسلوب تعاملهم مع بعضهم، ومصاعب الطريق ومشاكله المختلفة، وعدم توفر الأمكانات المادية والترفيهية، وعن المعاملة السيئة التي يمارسها سكان مكّة والمدينة ضد الحجّاج غير العرب.

من بين رحلات الحجّ اللطيفة والمشوّقة، والمؤلمة أحياناً، هذه التي بين يديك، فمع أن كاتبها مجهول، لكنّه، عموماً، يمكن القول: إنّه كان أحد أفراد بلاط ناصر الدين شاه قاجار وموضع اهتمامه، حيث إنّه شرع في رحلته هذه بعد الاستئذان منه، وقد كتبها خصيصاً؛ ليقرأها (الشاه) نفسه.

يتّضح لنا من مواضيع هذه الرحلة، أن الكاتب كان يحمل أفكاراً جديدة، وتتصف بالتطور، ففيما يخصّ حياكة السّجاد يكتب قائلاً:

«للأسف، إن معظم الألوان المعدنية إفرنجية وغير ثابتة، فياليت قادة البلد يمنعون منعاً باتاً استعمال ألوان الصبغ الإفرنجي في الصناعات الإيرانية».

وحول بناء السّدود يكتب قائلاً:

«إن الأراضي الإيرانية، التي تمرّ عِبرها هذه الأنهار، كلّها صحراوية وقاحلة وعديمة الفائدة، في حين إنّه يمكن وبمبالغ بسيطة، بناء سدّ؛ لتوجيه المياه الوفيرة نحو الأراضي الخصبة والصالحة، وإحياء الزراعة».

إن الكاتب، من البداية وحتى النهاية، ينظر نظرة نقدية ثاقبة للمسائل المتعلّقة به، ويُطلع القارئ على كثير من الوقائع والأحداث والمشاكل الخاصّة بذلك العصر.

ومن المسائل التي تهزّ الضمير في هذه الرحلة، بيان جوانب من اضطهاد أهالي المدينة للشيعة، ففي هذا المجال يقول الكاتب:

والعجيب، أنّ شيعة أهل المدينة يسكنون خارج المدينة القديمة، وبيوتهم رديئة جدّاً وخَرِبة، ويعيشون عيشة صعبة للغاية، ولا يسمح لهم أهل المدينة بالدخول إلى الحرم الشريف ومسجد النبيﷺ، ويحدث بين الحين والآخر أن يسطوا علىٰ منازلهم وينهبونها ويضربوهم ويقتلوهم...!

بدأت هذه الرحلة في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ١٢٩٦هـ. ق وانتهت في جمادى الآخرة سنة ١٢٩٧هـ. ق.

العزم على الزيارة:

بعد أن طلبتُ الإذن بالسفر من تراب قدم صاحب الجلالة المباركة، غادرت في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ١٢٩٦ عازماً علىٰ زيارة بيت الله الحرام، وقد رجعتُ الىٰ طهران في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٩٧، وما رأت عيناي في هذه الرحلة، كتبته يدي في السطور التالية:

من طهران الىٰ خانقين:

في الطريق من طهران وحتىٰ حدود خانقين، شاهدتُ بعض المضائق والجسور الجيدة، حيث إن الناس العظام الخيّرين قد بنوها، وذلك لتوفير الراحة والرفاهية للزائرين والمسافرين. وقد تهدّمت معظمها مع مرور الزمان، وبعضها علىٰ وشك الخراب. ويمكن في الوقت الحاضر، وبمبالغ بسيطة ترميمها كلّها، ويُخلّد القائمون علىٰ ذلك مدى الأجيال. ومتىٰ ما أهملنا هذا الأمر، سيدبّ الخراب تدريجياً في جميع تلك الأبنية، وستذهب تلك المبالغ سُدًى، وسيتحمّل المارّون بها والمسافرون مشقّات إضافية، فعلىٰ سبيل المثال، يوجد في ساروق ـ وهي قرية معروفة للميرزا علي قائم مقام، وقد انتشر فيها فن حياكة السجاد، وأهلها أناس شرسون ـ مضيق مهم، وهو من الأبنية التي خلّفها الصّفويون. وقد عاث أهل القرية فيها خراباً، وهم متعمدون، حتى لا تصلح للسكن، وبالتالي يأتون بالمارين بها الىٰ خاناتهم (فنادقهم الصغيرة) حتىٰ يعتدوا عليهم بمختلف الأشكال.

فن حياكة السجّاد:

إنّ فن حياكة السجّاد في هذه الدولة دائمة الملك، ولله الحمد، قد انتشر

وتطوّر. فلم نرَ في طريق عـراق (اراك) وهمـدان وكـرمانشاه مـنطقة، إلّا وكـان نساؤها وفتيانها منهمكين بهذا الفـن، فـعلىٰ سـبيل المـثال، رأيتُ في كـرمانشاه سجّادتين (زين پوش) جميلتين، وهما من صنع إحدى النساء، وقد نقشت أنواع الزهور عليها، وجميعها ذات ظلال، وقد كان إبداع المرأة المذكورة لدرجـة يُـظَنّ معها أنّها قد رُسِمت بريشة رسّام إفرنجي. ولكن للأسف فإنّ أغلب ألوان الصـبغ إفرنجيّ وغير ثابت، وأن الألوانَ النباتية الثابتة قد نُسخت نهائياً، ولهذا السبب، فإنّ تجارة السجّاد قد تدهورت منذ سنين عديدة، فياليت قادة البلد، يمنعون منعاً باتاً استعمال ألوان الصبغ الإفرنجي في الصناعات الإيرانية.

قُطّاع الطرق في نوبران:

كان في نوبران مركز لصيانة الطريق، وكان مكانه قرب الجسر، يسكنه عدد من العمّال، وكانوا أناساً أشراراً أو ذوي سلوك عدواني، متىٰ ما مرّ اثنان أو ثلاثة أشخاص من هناك، فتشوا جيوبهم وآباطهم، وإذا عثروا علىٰ أموال أو أشياء ثمينة سلبوها منهم، وقد رأيتُ عدداً من زوّار منطقة هرات المترجّلين قد حدثت معهم مثل هذه الأعمال، وقد تعرّضوا جميعاً للاعتداء. وأخذ ما معهم بالإكراه.

ومن حدود ايران الىٰ حدود بغداد في أرض العـراق يمكـن مشـاهدة قـرًى ومناطق كثيرة، مثل: خانقين، ومدينة وان، وبـعقوبة، وقـزل ربـاط، ومـندلي وغيرها، وجميع هذه المدن ترتوي من الأنهار النابعة من إيـران، وكـلّها خـضراء يانعة، في حين إن الأراضي الإيرانية، التي تمرّ عِـبرها هـذه الأنهـار، صـحراويـة وقاحلة وعديمة النفع، حيث إنّه يمكن وبمبالغ بسيطة بناء السّدود، وتوجيه مـياه غزيرة نحو الأراضي الخصبة والصالحة، وإحياء الزراعـة، التي تحـمل في طـيّاتها منافع كثيرة للدولة والرعيّة، حيث يلي ذلك توفير الأمن علىٰ جميع الطرق، حتىٰ يتمّ الخلاص من الوضع الحالي، الذي يغير فيه لصوص الحدود كلّ يوم علىٰ قافلة من القوافل في منطقة ما فيسلبونهم كلّ ما يملكون.

في قصر شيرين:

بأمر من قائد البلاد دائم الملك، تقرّر استنفار عدد من الفرسان في مدينة قصر شيرين بصورة دائمية، وقد تفحّصتهم بدقّة، فوجدتهم لا يتجاوزون الثلاثين، أو الأربعين، بخيولهم التعيسة وأسلحتهم المغشوشة، يريدون النجاة أمام لصوص الحدود، المسلّحين ببنادق جيدة، وعندهم الخيول القوية المقاتلة، فكيف يريد أولئك الفرسان أن يؤمّنوا الطريق حتىٰ تعبر قوافل الزائرين بسلام؟!

إنّ في المنطقة الواقعة بين قصر شيرين والحدود، توجد آثار عدّة قلاع وبرج وقرية، بالقرب من الطريق الذي نسلكه، جميعها خرائب وخالية من السكان، وهي تقع في سهول خضراء ويانعة، وتحتوي على المياه الوفيرة، ويظهر أنّه بسبب بعض الاعتداءات، قد توارى سكّان تلك المناطق عنها، ومنذ ذلك الحين، أصبح السير في هذه القلعة غير آمن ومحفوفاً بالمخاطر.

العتبات المقدّسة:

عند توقفنا في العتبات المقدّسة، لفتت انتباهي نقاط، أهمّها:

أوّلاً: لا تتم المحافظة علىٰ الثريّات والشمعدانات المُهداة من قِبل صاحب الجلالة شهرياري، وأن الأموال التي تُقبض باسم إنارتها، لا تُصرف في ذلك، وخاصة في الكاظمية. أمّا في سرّ من رأىٰ، فإنّ هناك ثريّات مضاءة كلّ ليلة، وعملها مُنظّم، إلّا أن معظم اغلفتها قد حُطِّمت واستُبدِلت بأُخرىٰ رديئة.

ثانياً: في كلّ عام، تُنقل جنائز كثيرة للموتىٰ من جميع أنحاء إيران إلىٰ مدينة النجف الأشرف؛ لدفنها في مقبرة «وادي السلام». ومنذ لحظة دخول هذه الجنائز البلاد العثمانية، وحتىٰ لحظة الدفن، تجبىٰ ضرائب مختلفة في أماكن متعدّدة وبذرائع شتّىٰ، مثل: ضريبة (جواز السفر)، وضريبة التابوت، وضريبة الطريق، وضريبة الحراسة، وحق الأرض وغير ذلك. وبعد دفن الجثمان، يقوم عمّال المقبرة أنفسهم، من فرط دناءتهم، بعد أيّام قليلة، بنبش القبر وسرقة أحجاره، التي هي غير ذات

قيمة، وكذلك يأخذون علامة القبر من حجر وطابوق، ليبيعوها في مكان آخر. ونتيجة لذلك لا تستتر جثة الميّت إلّا بحصىٰ قليلة، وتكون علىٰ عمق يسير من سطح الأرض، حيث يصبح معظمها بعد ذلك طُعماً لدواب الصحراء، ولا يبقىٰ لقبور المسلمين هناك أيّ أثر.

السفر نحو البصرة:

بعد التشرّف بزيارة العتبات المقدّسة، صعدنا في ١٤ شوال علىٰ ظهر مركب صغير علىٰ دجلة يسمىٰ (لندن)، وانطلقنا من بغداد نحو البصرة، وبعد عدّة أيّام انتقلنا الىٰ ظهر مركب آخر يسمىٰ (بلاس لنج)، حيث وصلنا البصرة في ٢٢ شوال، وفي الطريق إلى البصرة، كنا قد مررنا علىٰ آثار المدائن، وقبر سلمان الفارسي، وقصبة العمارة، التي تقع جميعها على الجانب الأيسر من دجلة، والعمارة قصبة واقعة علىٰ ضفاف دجلة، جميلة جدّاً، وهي تابعة للحكم العثماني، ولا يقل عدد سكانها عن مائة أسرة، كما يقطنها الكثير من الرعايا الإيرانيين، ويتواجد فيها موظف عن دائرة رعاية المصالح في بغداد أو ما يعرف بلغة اليوم القنصلية.

المدائن:

كانت في الماضي مدينة واقعة علىٰ ضفاف دجلة، بناها ملوك العجم، وكانت تعدّ العاصمة الشتوية لهم، وبعد تهدّمها، بُنيت بغداد من مواد البناء المتبقية من خرائبها، وفي الوقت الحاضر لم يبقَ منها سوىٰ طاق كسرىٰ، وبالقرب منه، قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث يُشاهد من علىٰ دجلة، مع أعدادٍ من النخيل.

قبر النبيّ عزير عليه السلام:

وعلى الضّفة اليمنىٰ لنهر دجلة، يوجد قبر النبي عزير عليه السلام، حيث يحتوي علىٰ صحنٍ كبير وواسع، وحوله أبنية ذات طابقين يقطنها اليهود، والقبر بمثابة مكان مقدّس للعبادة.

البصرة:

وهي مدينة مُلحقة بالحكم العثماني وتابعة لبغداد، تقع علىٰ ضفاف شط العرب، علىٰ مسافة ثلاثة أرباع الفرسخ، وبُعد الشمال الشرقي والشمال الغربي عن الخليج الفارسي هو أربعة عشر فرسخاً، والمسافة من الجنوب الشرقي للمدينة إلىٰ بغداد هي ٤٦ فرسخاً، والطول الغربي للمدينة عن طهران هو ثلاث درجات، والعرض الشمالي لها ثلاثون درجة. وقد سُجّل عدد نفوسها بحوالى ٥٠ الىٰ ٦٠ ألف شخص، ولكن حسب اعتقادي فإنه أقل بكثير من هذا العدد، وتضمّ أسواقاً كثيرة، وأزقة ضيّقة وقذرة وغير منتظمة، وتوجد فيها مستشفىٰ أيضاً، وبسبب المدّ والجزر لشط العرب فإن هواءَها غير صحّي.

إن مدينة البصرة، هي إحدى المراكز التجارية الكبيرة في آسيا، وللعديد من الدول الأوروبية مصالح تجارية فيها، وفي الماضي، كان لها شأن كبير.

وقد أسّسها الخليفة الثاني في عام ١٥ هجرية، وقد خضعت في العام ١٠٤٨ هجرية لسيطرة ايران، ثمّ انتزعها العثمانيون بعد ذلك، وعادت الى السيطرة الإيرانية من جديد في العام ١١٨٧ ولمدّة ستة أعوام، وهي حاليّاً تحت السيطرة العثمانية.

معظم أهلها من أهل السنّة، وتجاورها بمحاذاة الشطّ، قصبة جميلة تُعرف بـ(علي مقام) حيث تحتوي علىٰ مسجد قد صلّىٰ فيه أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو محل زيارة العامّة. وتقطن هذه القصبة غالبية شيعية، ويُقيم الحجّاج فيها في الذهاب والإياب.

علىٰ مقربة من (علي مقام) وعلىٰ ضفاف الشط، يوجد بستان كبير صاحبه تاجر مشهور من العجم يسمّى الآقا عبد النبي، وقد حلّ الدّاعي ضيفاً علىٰ صاحب هذا البستان، ومع حداثة سنّه، فإن التاجر المذكور ذو حظوة وشهرة كبيرتين، وهو يقوم بتلبية احتياجات الحجّاج من العجم. وقد تجاوز رؤساء

التجار كثيراً من القيم للحفاظ علىٰ أنفسهم وذلك بالانتماء الى الدولة العثمانية.

بعد ثلاثة أيام من الإقامة في البصرة، صعدنا علىٰ ظهر سفينة أكبر تدعىٰ (هانري پولكو) وفي الثامن والعشرين من شهر شوال رست السفينة علىٰ شاطئ ميناء بوشهر، وقد مرّت في طريقها على المحمّرة، وهذه القلعة تقع على الضفة اليسرىٰ من الشطّ، علىٰ بعد عدة فراسخ قبال البصرة، ويمرّ نهر الكارون بمحاذاتها، ويبدو جليّاً من بعيد منظر البرج وسور القلعة. وخصوبة المنطقة هي أكثر من البصرة، وتضمّ أراضي صالحة للزراعة، ولكن اقتضت سياسة شيخ العرب دائماً علىٰ أن يُبقي تلك المنطقة في خرابٍ ودمارٍ، وأن يحول دون إسكان أحد في القلعة، وإلّا فليس مستساغاً أن يكون وضع المحمّرة علىٰ هذا الحال بالمقارنة مع البصرة، فشيخ العرب هذا قد جمع لنفسه عقارات وضيعات خارج أرض المحمّرة، أي في الأراض العثمانية، وصبّ جلّ اهتمامه عليها، ولولا وقوفه أمام طموح الرعيّة وسوء الظن بهم ورغبته في خرابها، لانتعشت قلعة المحمّرة بسكانها وتجارها، وازدهرت بساتين النخيل فيها، ولدرّت على الدولة والرعية أموالاً طائلة بينما لا تجد فيها الآن غير الخروف المشوي.

بوشهر:

وهي إحدى الموانئ في بلاد فارس، تقع علىٰ ضفاف الخليج الفارسي، ويمرّ عبرها دائرة نصف النهار لطهران، ويحين وقت الظهر في المدينتين في آنٍ واحد وهي علىٰ خط العرض ٢٩ درجة الشمالي.

وعدد السكان فيها يناهز العشرة آلاف نسمة، ومعظم أزقّتها ضيّقة وأبنيتها ذات طابقين. وهي تعدُّ مركزاً تجارياً مرموقاً، وغالبية سكانها من التجّار، وتضمّ ثلاث سفارات مهمّة، الأولى السفارة البريطانية، التي تمارس نشاطاتها باقتدار شديد، ويقع مبنى السفارة علىٰ شاطئ البحر، وتحرسها مجموعتان من الجنود الهنود بإمرة أحد الضباط، الذين يؤدون التمارين العسكرية عصر كلّ يوم في باحة السفارة.

السفر نحو جِدّة:

في الثاني من شهر ذي القعدة تحرّكنا من بوشهر نحو جِدّة، وقد كان مرورنا علىٰ بندر عباس وجزيرة قشم، ومضيق هرمز، ومسقط، وعدن، وعبرنا مضيق باب المندب الىٰ (مخا) ومن ثمّ وصلنا الىٰ جِدّة في الثامن عشر من ذي القعدة.

بندر عباس:

مدينة في بلاد فارس علىٰ مسافة ستة فراسخ، إلى الشمال من مضيق هرمز، في الحدود الجنوبية لفارس، مساحتها ٢٠ فرسخاً × ٤ فراسخ، وهي مختصّة بأحد شيوخ العرب، الّذي يَمُتُّ بصلة قرابة لإمام مسقط. كانت تحتوي علىٰ ثلاثمائة قرية، ويبلغ تعداد سكّانها حالياً ستة عشر ألف نسمة، بما فيهم أربعة آلاف يسكنون بلدة قشم، في الجزء الشرقي من الجزيرة.

هرمز:

مدينة وميناء في قارة آسيا، تقع على الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة هرمز، ولا تبعد كثيراً عن سواحل بلاد فارس، وهي تقع علىٰ بوابة الخليج الفارسي، وتتصل ببحر عمان عن طريق مضيق هرمز، ويبلغ عدد سكانها نحو ثلاثمائة شخص، وفي الماضي، كانت جزيرة هرمز مركزاً لاستخراج اللؤلؤ بكميات كبيرة، حيث كانت تجمع من أطرافها. والجزيرة، وإن كانت قاحلة فعملية استخراج اللؤلؤ، وموقعها الجغرافي المتميّز، الذي يعدُّ مفتاح الخليج الفارسي جعلها ذات أهميّة خاصّة، ولهذا، فإنّ سلطاناً صغيراً كان يسيطر علىٰ هذه المنطقة، وكان يضطلع بمسؤولية الحفاظ علىٰ أبراج الجزيرة، وكانت مقتدرة، وظلّت لمدّة طويلة بمثابة مقر للبرتغاليين في الشرق، ولكن الشاه عباس ضمّها تحت لوائه في عام ١٠٣٣، وهي الآن تحت السيادة الإيرانية، ولكن صيد المحار قد أفل نجمه.

مسقط:

مدينة تقع في الجزيرة العربية، وهي عاصمة إمامة مسقط، تبعد عن مكّة

مسافة ثلاثمائة فرسخ، وهي علىٰ خط الطول الجغرافي (١١) درجة الى الغرب من طهران، وعلىٰ خط العرض ٢٣/٥ درجة شمالاً، وتقع علىٰ مقربة من مضيقٍ في الخليج الفارسي، ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة، وتعدُّ موانئها من أفضل وأهمّ الموانئ. وأمّا مناخها فحارّ مُحرق وغير صحّي. وهي مكان لمرور جميع أنواع البضائع والسّلع، التي ترد من الهند إلى الخليج الفارسي، كما أنها مركز مهمّ للتجارة واللؤلؤ في هرمز.

عدن:

وهي من مدن اليمن، تقع بالقرب من الخليج الفارسي، علىٰ مسافة (٣٦) فرسخاً جنوب شرقي (مَخا). كان عدد سكانها في السابق يبلغ ألف نسمة، إلّا أنها ـ وبعد أن أصبحت تابعة للتاج البريطاني ـ تقدّمت كثيراً من حيث العمارة والسكان وازدهرت، وتحتلّ اليوم مكانة مرموقة في الشؤون الحكومية، كما أنها ميناء تجاري عامرٌ للغاية.

باب المندب:

وتعني هذه الكلمة باب النواح والنُّدبة، قد مررنا من هُناك ليلة الجمعة (٢٤) من ذي القعدة، عند السّحر. وباب المندب مضيق محفوف بالمخاطر الجمّة، وهو نقطة الاتصال بين البحر الأحمر وبحر عُمان، ويبلغ طوله حوالى ثمانية فراسخ، وأمّا طوله الجغرافي عن طهران فيبلغ (٨) درجات غرباً، والعرض (٢١/٥) درجة شمالاً. ويقع جبلان علىٰ عرض هذا المضيق، ويُقسّمان المعبر علىٰ ثلاثة طُرق، فالطريق الواقع الى اليسار قليل العرض، والطريق الأوسط قليل المخاطر. وقد وضعت الحكومة الإنجليزية هناك على الجبل حُرّاساً ومشعلاً دوّاراً لهداية الملّاحين، الذين يضلّون الطريق ليلاً لإيوائهم هناك.

مَخا:

مدينة في اليمن من جملة إمامة صنعاء، وتقع عند خليج الجزيرة العربية، الذي

يسمّونه كذلك بالبحر الأحمر، وتقع علىٰ مسافة (٤٦) فرسخاً الى الجنوب الغربي من صنعاء. وهي علىٰ خط طول (٩) درجات غرب طهران، وخط عرض (١٣) درجة شمالاً، ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نسمة، وهي مرسىً عامر. وتبدو جميلة جدّاً عن بُعد، إلّا أن داخلها يختلف عن ذلك، فمنظرها كريه، وهواؤها حارّ جدّاً، فدرجات حرارتها مرتفعة للغاية. تحيط بها أراضٍ مكسّوة بالحصىٰ، وتشتهر بزراعة البُن عند السفوح في أطرافها، واضافة إلىٰ محاصيلها من القهوة، التي تصدّر إلى الخارج، فهي مشهورة بالصمغ والمُصطكي والكندر والجلود المعدّة للتجارة.

جدّة:

مدينة وميناء معمور في الحجاز، تقع بالقرب من البحر الأحمر علىٰ بُعد اثني عشر فرسخاً الى الغرب من مكّة المكرّمة. يبلغ عدد سكانها حوالى عشرة آلاف نسمة. وترسو السُّفن علىٰ مسافة نصف فرسخ منها. وهي مركز لتواجد قنصليات لدول عِدّة، من جملتها دولة إيران، التي تمتلك قنصلية هامة فيها. وهي مبنية من الآجر المسمّىٰ بالبلوك المنحوت، وذات ثلاثة أو أربعة طوابق. وأزقّة جَدّة عريضة نسبياً ومستقيمة.

وجدّة تمتلك أسواقاً فاخرة وواسعة وعريضة تزخر ببضائع إنجليزية وهندية. أما مناخها فحار جدّاً، ودائماً نراه مشبعاً بالندىٰ، كما هو الحال في بوشهر ومكّة والمدينة وجميع الموانئ البحرية، ولا يمكن مع هذا الجو النوم في العراء، ويوجد خارج البوابة الشمالية، بمسافة قليلة، قبر طويل وعريض يُنسب الىٰ أمّ البشر، ويحرسه سدنة لصوص ومحتالون وأوباش.

وباختصار، فقد تنقّلنا بين ثلاث سفن طوال الرحلة، وكانت السفينتان الأوليان بريطانيتين. وكان طاقما السفينتين يتصفان بأدب رفيع، ومتفهِّمَيْنِ، وعارفَين بالقواعد الصحية، ولم يسمحا بازدحام السفينتين، لذلك لم يشقّ على

الحجاج الىٰ حدّ ما. وأما السفينة الثالثة، التي كان يملكها ابن المرحوم الحاج زين العابدين أحد تجّار شيراز، الذي يسكن في بومباي، فكان عليها طاقم أجنبي فقط قبيح وطمّاع. وقد صعد أفراد الطاقم الىٰ ظهر السفينة في مدينة بوشهر، وعلىٰ افتراض أنهم مسلمون، ولكنّهم لم يتوانوا عن ارتكاب أي منكر، فعاثوا في السفينة فساداً، وارتكبوا سرقات متعدّدة، ومع أن هذه السفينة قد استُخدِمَت حديثاً في نقل الحجّاج، وأن صاحبها المسكين كان له اهتمام كبير بخلق سمعة طيبة لها، لترغيب الحجاج للسفر علىٰ ظهرها وجني الأرباح من وراء ذلك، ولكن، على العكس ممّا كان يتمنّىٰ صاحبها، فأفراد الطاقم غير حريصين، فقد عمدوا الىٰ حشر الكثير من الحجاج في مساحة قليلة علىٰ ظهر وداخل السفينة، فماذا أقول عمّا عاناه الحجاج من مصاعب ومِحن؟ فقد مَرِض الكثير بسبب رداءة هواء مخازن السفينة، ولمّا كان الحصول على الدواء والغداء المناسب غير متيسّر، مات بعضهم، ودفنوا في البحر وبطون الأسماك.

وباختصار، فقد مرّت ظروف عصيبة علىٰ ركاب السفينة، حتىٰ وصلنا جدّة، ومنها إلىٰ مكّة والمدينة عن طريق (السعدية).

السعديّة:

وهي المكان الذي يحرم منه الحاج، ويقع في مقابل جبل يلملم، الذي أحرم أمير المؤمنين علي عليه السلام منه، عند رجوعه من اليمن. والمكان عبارة عن وادٍ يَتوَسَّطه بئر، بعرض ثلاثة إلىٰ أربعة أذرع وبعمق أربعة إلىٰ خمسة أذرع، وقد بُني من الحجر المصيقل، وهو علىٰ بعد منازل ثلاثة من جدّة ومنزلين من مكّة المكرّمة، وفي كل منزل يوجد بئر مماثل، تشرب منه العشائر وأغنامها، والشيء الذي توصلت إليه بشكل دقيق هو ما يلي:

يمكن شقّ الأنهار والقنوات في المنازل الخمسة المذكورة، بل في معظم المنازل الموجودة بين الحرمين، فإنّ غالبية الأراضي هناك تضمّ في جوفها الماء الوفير،

وهي وعرة التضاريس، ويمكن بحفر بضع آبار، أن تجري سلسلة من القنوات فيها، ويمكن إحياء كلّ تلك الأراضي، ولكن لا أعرف ما السبب في أنّ أحداً لم يطرق هذا الباب طوال القرون الماضية، وإحياء تلك الأراضي بأقل كلفة؟ ففي تلك الصحاري لا ينبت غير الزعرور، وهو شجر الصمغ العربي، في حين يمكن أن نجعل منها جنّات وحدائق زاهية.

الوصول إلىٰ مكّة المكرّمة:

في السادس والعشرين من شهر ذي القعدة، وصلنا إلىٰ مكّة المكرّمة من الطرف الجنوبي، وهي إحدىٰ مدن الحجاز، ومنبع العظمة والقداسة، تقع علىٰ بُعد سبعة فراسخ إلى الشرق من البحر الأحمر، وتقع علىٰ خط الطول ١١ غرباً، وعلىٰ خط العرض ٢١/٥ شمالاً.

كان عدد سكانها في السابق بحدود مئة ألف نسمة، وقبل ثمانين سنة كان العدد حوالى ثمانية عشر ألف نسمة، فارتفع العدد حتىٰ وصل في الوقت الحاضر الىٰ خمسين ألفاً، ويقدّر عدد الحجاج بمثل هذا الرقم، وفي هذا العام، قدّرت التخمينات عدد الحجاج بما يزيد على المئة ألف حاج.

وأزقتها منظّمة، وجميلة، وأبنيتها نظيفة، وقد بُنيت المدينة في عدّة أودية، وعلىٰ حافات الجبال والشِعَب، فهي لهذا السبب غير مستوية. وجبل «أبو قبيس» يُقسم المدينة قسمين مختلفين، يقع القسم الأعظم منها على الطرف الأيمن، حيث تضمّ مركز المدينة، أمّا الطرف الأيسر فيضمّ القسم القديم منها. ومعظم مساكنها من الحصير والطين، وهي بسيطة جدّاً وبلا أساس. أما أبنيتها الأخرىٰ فهي من الحجر المنحوت وذات طوابق ثلاثة أو أربعة، وليس للبيوت صحن أو باحة، وجميعها تحتوي علىٰ باب ونافذة على الطريق، وتستقي المدينة ماءَها من قناة زبيدة، وهي أقل من مستوى الأرض بذراعين أو ثلاثة أذرع، لذلك يستقون بواسطة الدلاء.

الكعبة وبيت الله الحرام:

يقع القسم الأكبر من المدينة حول المسجد، ويتوسّطه بيت الله، حيث يبلغ طوله ١٥ ذراعاً وعرضه ١٠ أذرع، وهو مربع الشكل، وارتفاعه أكثر من الطول والعرض، وقد بني من الحجر المنحوت، وأحجاره بحجم نصف ذراع وثلاثة أرباع الذراع × ربع ذراع وقد غُطّي بحُلّة سوداء من الحرير.

وموقع البيت بالنسبة للجهات الأربع منظّم، فأحد أضلاعه يوازي الجهة الشمالية، والثاني يوازي الجهة الجنوبية، والثالث يوازي الجهة الشرقية، والرابع يوازي الجهة الغربية، ويقال لزوايا الكعبة: الأركان.

الحجر الأسود:

يقع الحجر الأسود في الركن الجنوبي الشرقي، وعلىٰ ارتفاع ذراع وربع الذراع تقريباً، وضع على الزاوية الخارجية لجدار الكعبة، ولا يتألف من قطعة واحدة، بل من حوالى عشرين قطعة، مُحاط بطوق فضّي، وقد نُصب هذا الطوق علىٰ زاوية. وسطح الحجر غير مسطّح، فهو مقعّر إلىٰ حدٍّ ما وليس له قاعدة، ولونه أسود ولكن سواده غير مكروه، فهو قهوائي جذّاب جدّاً، وتتخلّله آخاديد بيض وحمر تَسُرُّ الناظر، والحجر متماسك، ومحكم جدّاً وصلد.

لقد اطّلعتُ في الكتب الإفرنجية علىٰ ما يعتقده حكماؤهم بأن هذا الحجر هو أحد الأحجار الساقطة من الجو، ويحتوي على الحديد والنيكل وبقية المواد المعدنية، ولكنّه اعتقاد باطل، فهذا الحجر بريء مما ينسبونه إليه، فقد ذهبتُ مراراً في أوقات فراغي إلىٰ هذا الحجر وشاهدته بدقّة، فلم أجد له أي شبه، فهو لا من الأحجار الأرضية، ولا من الأحجار المتساقطة من السماء.

حِجر إسماعيل:

وهو علىٰ شكل نصف دائرة يقع علىٰ أحد أطراف البيت مواجهاً للطرف الجنوبي، ويتّصل بضلع ميزاب الرّحمة. ويجب على الحجيج أن يطوفوا حول

الاثنين، وأرض الطواف هي بعرض خمس الىٰ ست أذرع، تحيط بالبيت والحِجر معاً. وخارج أرض الطواف يوجد مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبة بئر زمزم وبقية خواص الحرم، وأرض الحرم مرتفعة عن أطرافه بمقدار ذراعين.

وقد زُيّن داخل البيت ببعض الزينة، وباعتقادي أن الزينة الروحانية الباطنية لبيت الله كافية. «فالمحبوب الجميل لا يحتاج إلى الزينة»، فلو جُرّد البيت من الزينة، لكانت هيبته وعظمته في القلوب أعظم وأكبر بكثير. «فإن العروسة الجميلة أسعد حالاً بلا أثاث».

دكّان النخاسة:

استمرت إقامتي في مكّة شهراً واحداً، وكنت في بعض الأحيان أذهب للنزهة، وذات يوم ذهبتُ إلىٰ دكان النخاسة، وهي في الواقع ثلاث دكاكين معتبرة في مكّة تقوم ببيع الرقيق، وقد شاهدتُ حالة غريبة: أنواع الإماء والعبيد والخصيان قد جُلبوا من الحبشة، وزنجبار، والنوبة، والسودان، وغيرها. وقد صُفَّت السرائر بالترتيب، ووضعوا الرقيق عليها في صفوف منظمة، وحضر السماسرة وأحد الملالي من جماعة أهل السنّة، وذلك لعقد صيغة البيع. وحضر الزبائن وهم من بلدان مختلفة، وكان السماسرة يتحدّثون إلى الزبون بمنتهى المحبّة، كما كانوا يأتون إليه بالأمَة أو العبد الذي يطلب، ويعرضون أمامه أعضاء بدنه كافة، ويتساومون معه بخلق وبمهارة فائقة. وأمّا إذا كان الزبون إيرانيّاً، فلا يُلقون إليه بالاً أبداً بل إذا توقّف قليلاً، فلا يُستبعد أن يؤذوه، فهم يحرّمون التعامل معه؛ لذلك فالزبون الأعجمي عليه أن يوكّل أحداً من العرب ليشتري بالنيابة عنه.

مولد النبي صلى الله عليه وآله ومولد علي عليه السلام:

يوجد في مكّة مكانان هما موضع زيارة العامة، الأول يعرف بـ«مولد النبيّ» صلى الله عليه وآله والثاني هو «مولد أمير المؤمنين علي» عليه السلام، وقد قام بعض السلاطين العثمانيين بتعميرهما، ويتولىٰ أمرهما سادن وبعض الخدم.

مكان العمرة:

وهناك مكان العمرة، وهو أحد حدود الحرم الشريف، ويبعد مسافة نصف فرسخ الى الغرب من مدينة مكّة، ففي هذا المكان توجد علامة حدّ الحرم، وهناك أيضاً مسجد ومسبح ومقهىٰ، فكلّ من كانت له نيّة العمرة المفردة، يغتسل هناك، ومن ثمّ النيّة، فالإحرام، ثم يرجع.

منىٰ وعرفات:

ومن توابع مكّة أيضاً، منىٰ وعرفات، وتقعان الى الشمال من مدينة مكّة، وتبعد منىٰ مسافة نصف فرسخ، وفيها مباني عالية، تستخدم كمساكن للحجاج والتجار أيام موسم الحجّ، أما في بقية الفصول فتكون أماكن للنزهة والسياحة لأهل مكّة. ويوجد فيها مسجد يسمىٰ (مسجد الخيف) حيث يبلغ طوله مئة وعشرة أذرع، ويبلغ عرضه تسعين ذراعاً، وإلى الشمال منه تمتد صحراء، فيها أعداد لا تُحصىٰ من الأغنام التي جيء بها كقرابين للحجيج، ولقد شاهدتُ كذلك وجود بعض الماعز الفريد، حيث لا يوجد أي تشابه بينه وبين الماعز في إيران، فجسمه شبيه تماماً بالغزال، له شعر قصير، ناعم وبرّاق، وعلىٰ جلده وبر شبيه بما هو موجود علىٰ جسم النمور.

إن القرابين في منىٰ تُعطىٰ لجماعة من الزنوج، الذين يقومون بفرش لحومها علىٰ صخور الجبال تحت أشعة الشمس لتجفيفها بسرعة، ثم بعد ذلك يقومون بخزنها لمؤونة سنتهم.

وقد قاموا بحفر عدّة حُفَر لدفن فضلات ودماء الذبائح، ولكن الحجاج لم يعيروها أي أهمية، فكلّ حاج يقوم بذبح أضحيته أمام خيمته، فكان هذا العمل سبباً خطيراً في التلوث الشديد، بالرغم من أنّ هؤلاء الزنوج يقومون بنقل الفضلات بعد ذلك تدريجياً.

لا يوجد في مكّة المكرّمة أيّ حقل أو خُضرة، عدا حقل نخيل واحد يقع إلى

الجنوب، وهناك اثنان آخران إلى الشمال. كما أن هناك بعض قطع الأراضي الخضر حول المدينة، التي تُسقىٰ من مياه الآبار.

إن ضرب الطبول معمول به في مكّة المكرّمة، حيث تُقرع الطبول عصر كلّ يوم أمام باب البيت، وكذلك تُستخدم بعض الآلات الموسيقية بلا أيّ مانع.

أمّا الطرق في مكّة المكرّمة فهي عبارة عن سوق مُغطّى وزقاق توجد علىٰ جانبيه مبانٍ ذات طوابق ثلاثة أو أربعة، لذلك فإن الهواء فيها غير طَلِق، وليس هناك أي ساحة أو عراء لتنفّس الهواء الطلق، عدا صحن المسجد وميدان خارج المدينة يقع الى الشمال منه.

الصفا والمروة:

وهما جبلان صغيران يقعان علىٰ طرفي المسجد الحرام، علىٰ مسافة ثلاثمائة ذراع، ويقع الصفا علىٰ حافة جبل «أبو قبيس»، والمروة الى الشمال من المسجد علىٰ حافة جبل آخر، ويصل بينهما طريق عام وسوق، يقع المسجد الحرام علىٰ أحد ضلعيه، وعلى الضلع الآخر هناك المباني والدكاكين، وقطعة الأرض هذه مقدّسة ومشرّفة جدّاً، ولا يوجد أي شك في أنّ النبيّ ﷺ وقبله عدد من الأنبياء، وكذلك الأئمة الطاهرون وأولياء الله قد قطعوا هذه المسافة تكراراً، ومع كلّ هذا فإن عرب مكّة قد جعلوا قطعة الأرض هذه من أوسخ الأماكن، وصارت مأوى لمعظم كلاب مكّة.

قُدُماً نحو المدينة الطيبة:

بعد أن أنهينا المناسك، غادرنا مكّة المكرّمة في ٢٧ من ذي الحجة، عازمين على الذهاب إلى المدينة الطيبة، ووصلناها في أواسط شهر محرم الحرام، وتسمىٰ أيضاً مدينة النبيّ ﷺ وفي السابق كانت تدعىٰ بـ(يثرب)، وهي مدينة لها من الشرف والمنزلة ما لمكّة. تقع في أرض سهلة علىٰ مسافة ستة وخمسين فرسخاً إلى الشمال الغربي من مكّة، وتقع علىٰ خط طول ١١ درجة غرب طهران، وعلىٰ خط

عرض ٢٥ درجة شمالاً، وتضمّ ألفاً ومئتي أسرة، وهي ملجأ سيد المرسلين عند هجرته من مكّة، وفيها عدّة مدارس، ويقصدها الحجيج بعد زيارة مكّة وذلك لزيارة قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

المدينة بلدة محصورة، ولم يبقَ أيّ أثر من الخندق القديم سوىٰ آثار قليلة في بعض النقاط، وقد هُدّم مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، وبنى السلطان عبدالحميد خان مكانه مسجداً فاخراً في ظاهره وكبيراً، ولم يبق شيء من آثار المسجد القديم المقدّس غير المقاييس، والحدود التي نُقِشت على الأعمدة الصخرية، مثل حدود مسجد النبي صلى الله عليه وآله، وموضع عمود حنّانة، وموضع محراب ومنبر النبي صلى الله عليه وآله وأبواب بيته، التي تُعرف بباب جبرائيل وباب ميكائيل... الخ، وحدود بيت الزهراء سلام الله عليها، وأمثال ذلك، وياليت أبنية الطين تلك باقية لحد الآن! وأمّا اليوم، فالمدينة لا تشبه بأي حالٍ من الأحوال المدينة القديمة، فجميع المباني هي من الحجر المنحوت ومعظمها ذات ثلاثة أو أربعة طوابق، وقد بُنيت بشكل خاص علىٰ تلك المساحات من الأرض، وعرض الزقاق فيها ثلاث أو أربع أذرع. ولكل طابق منها باب للخروج من كلا الطرفين إلى الطابق الثالث والرابع، حيث يمكن الانتقال من على سطح الدار في هذا الزقاق إلى الطرف الآخر، وتشبه سقوفها الىٰ حدٍّ كبير السقوف «الجملونية» أو ما تسمىٰ بالسقوف «الموشورية» علىٰ طول الزقاق.

وقد ارتفع المرقد الطاهر للرسول صلى الله عليه وآله وقبر الشّيخين بشكل مشابه لحرم بيت الله، فهو مربّع الشكل، وغطّيت هذه القبور بالقماش، وتقع مع قبر الزهراء (عليها السلام) علىٰ جهة واحدة من المسجد. وأمّا المسجد فهو مكوّنٌ من صحن كبير أُحيط من أطرافه بالأعمدة والايوانات. ونقش في أعلى الأعمدة اسم «الله» والاسم المبارك للرسول صلى الله عليه وآله وأسماء العشرة المبشرين بالجنة، وأسماء «الأئمة الأطهار» بالذهب وبخط جليّ وواضح.

هذا، ويرجع عهد بناء هذا المسجد ومتعلقاته الى السلطان عبدالحميد خان.

وأمّا بناء القبر الطاهر والضريح فيرجع إلىٰ عهد قايتبا (ي). ويقع المسجد من ثلاث جهاته على الشارع الرئيس، وهو مبنيٌّ من الحجر المنحوت الجميل الصافي. ومن بين القبور المعروفة في المدينة قبر عبدالله والد الرسول صلى الله عليه وآله والواقع في سوق الصّفّارين.

مقبرة البقيع:

تقع هذه المقبرة خارج المدينة، أمام إحدى بوّابات المدينة ويفصل بينهما زقاق. وتشمل هذه المقبرة بقعة من ترميمات السلطان محمود خان، تضمُّ في كنفها قبوراً مطهّرة لأربعة من الأئمة عليهم السلام: الإمام الحسن، والإمام زين العابدين، والإمام محمّد الباقر، والإمام جعفر الصادق عليهم السلام الىٰ جانب قَبرين آخرَين أحدهما للعباس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله والآخر لفاطمة بنت أسد أو فاطمة الزهراء، ويقع بيت الأحزان خلف هذه البقعة الطاهرة إلىٰ مسافة قصيرة، ويقع قبر الشيخ أحمد البحريني في جانب من هذه البقعة الشريفة. وهناك بقاعٌ أُخرىٰ في المقبرة لبنات النبي صلى الله عليه وآله وزوجاته وحليمة مرضعته صلى الله عليه وآله. وفي نهاية المقبرة المذكورة يقع قبر الخليفة الثالث.

وفي الطرف الشمالي الشرقي للمدينة يقع جبل أُحد حيث قبر سيدنا حمزة سيد الشهداء عليه السلام علىٰ سفح من سفوحه، وله مسجد وصحن، وتمّ ذلك علىٰ عهد السلطان عبدالحميد خان، وتقع قبور سائر شهداء أُحد خلف الحائط الشمالي. وقد أُحيطت هذه القبور بسور ترابي بسيط وهو علىٰ وشك الانهيار، وتقع بالقرب منه بقعة دُفِنَت فيها أسنان الرسول صلى الله عليه وآله.

وتجري في المدينة وما حولها بضع قنوات وبساتين جيدة، وخاصة في الطريق إلىٰ أُحد. وقد أُزيلت من بساتين أطراف المدينة الأتربة بحدود ذراعين إلىٰ ثلاث باليد؛ وذلك لإبقاء الماء فيها عند الارواء.

مظلومية شيعة المدينة:

أغلب رجال أهل المدينة من الكواسج ولونهم أبيض، لكنّهم بذيئوا اللّسان

وقساةٌ ومعيشتهم ضنكا. وفيها طائفة النخاولة[١] الذين يرجع نسبهم الى الإمام السّجاد عليه السلام وجميع أُولئك من الشيعة الخُلَّص، وهذه الطائفة لها بيوت خارج المدينة القديمة وهي بيوت خربة جدّاً، وتعيش في ضنك وفقر مدقع، ولا يسمح لها أهل المدينة بالدخول إلى الحرم الطاهر أو مسجد النبيّ، وقد حدث مراراً أن هجموا علىٰ بيوت تلك الطائفة، وأوقعوا فيها القتل ونهبوا ما لديها. واعتقد أن لو كان لأحد في المشرق نذر بقدر فلس واحد يحرم حينئذ إعطاؤه إلىٰ غيرهم عند الإمكان، وعليه أن يوصله إليهم مع وجودهم، فحياة هؤلاء المساكين مُرّة وصعبة ولا يمكن شرحها على الإطلاق.

ومن عادات أهل المدينة أنّهم على الأغلب يربّون المواعز للحصول علىٰ ألبانها، فهم يشدّون علىٰ ضروعها كلّ صباح ويطلقونها تسرح، فتسيح هذه المواعز في الأزقة إلىٰ غروب ذلك اليوم، وعند العشاء تعود إلىٰ منازلها لوحدها، ولا يُعلم ما تأكله هذه الحيوانات المسكينة أو تشربُه! إذ لا يوجد في الأزقة ما يمكن أكله سوى الأتربة والخرائب، وتُحلبُ مع ذلك في الليل!

وقد تحيّرت في هذه الحادثة حتىٰ سمعت خبراً، أنّه في عهد خاتم الرّسل صلى الله عليه وآله شكىٰ أهل المدينة إليه صلى الله عليه وآله: أنما مضطرون للاحتفاظ بالمواعز من أجل ألبانها، إلّا أنّه لا يوجد عندنا شيء لإطعامها، وأرضنا يابسة جرداء. فأجابهم الرسول صلى الله عليه وآله بكلام بياني إعجازي: اطلقوا مواعزكم تخرج في الصباح، وامسكوهن في الليل. فصار ذلك عرفاً عندهم حتىٰ وقتنا الحاضر، فقد عاشت مواعزهم بفضل وبركة كلامه صلى الله عليه وآله ولا يعرف أي شيء كانت تأكله!

التعامل الجاف مع العجم:

إنَّ ما رأيته في الحجاز هو أنَّ العجم، ولا أدري ما السبب في ذلك؟ مغضوب عليهم، ويحتقرهم ويذلّهم الناس هناك، ومع أنّه في هذه السنوات وبحسن كفاءة ودراية الحاج ميرزا حسن خان منسّق الأعمال المقيم بجدّة، قد تحسّنت الحالة

كثيراً، إلّا أنَّ تلك الحالة لم تخلو من المخاطر، خاصة في المدينة الطيبة حيث تُستَحلُّ فيها دماء وأموال العجم، ولا يتأخر أهلها عن إيصال الأذى إلى الحجّاج، حتى السيد حسن المطوّف الذي هو مأمورٌ من جانب جناب معين الملك لملاحظة مطوّفي الحجاج الإيرانيين، أبدىٰ منتهىٰ سوء التصرف والسلوك. وقد ساد العُرف منذ سنين علىٰ جباية مبلغ ريالَين إفرنجيَّين من كلّ حاج أي ما يُعادل اثني عشر ألف دينار لحسابه، فيقسّمها هو على المزوّرين والخدام في الحرم.

ويعمد هذا الرجل المتوحش القليل الأدب مع جماعة من الخواجات والعسكر إلى الهجوم علىٰ مخيَّم الحجاج المساكين في منتصف الليل دون سابق إنذار لأخذ تلك الأموال، وإذاكان الناس نائمين في خيامهم، سواء أكانوا لوحدهم أم مع عيالهم، يغيرون عليهم ليلاً وينتزعون منهم تلك الأموال بكلّ وحشية، كما أنَّ بعض أهل المدينة ـ من الذين يتّصفون بقلّة الأدب الزائد عن الحدّ وبالوحشية ـ لا يعيرون الإيرانيين ذرّة وقار أو احترام بل ولا يحسبونهم من صنف البشر!

وقد رأيت بعينيَّ في مسجد الرسول الأكرمﷺ جماعة من الحُجّاج الهُنود يخيّمون هناك، وكانوا قذرين للغاية وثيابهم رَثَّة، وهم يجلسون كلّ يوم تحت أشعة الشمس علىٰ فُرُش نظيفة، يقتّلون القَمْل ثم يضطجعون ويغطّون في النوم، ومع هذا يتحركون بكلّ حرّية ووقاحة دون أن يعترضهم أحد.

مَنْع الزيارة:

ومع أن أغلب الإيرانيين يلبسون ملابس نظيفة وجميلة، لا يُسمح لهم خلال النهار بالتوقف في المسجد كثيراً لأداء الزيارة، ولا يتجرأون في الذهاب إلى المسجد، وفي اللّيل هم ممنوعون تماماً من دخول المسجد مع أنّهم كانوا يتحركون بكلّ أدب وحيطة وحذر، وقد رأيت يوماً في زقاق من أزقة المدينة رجلين ايرانيين عظيمي الجُثّة يجتازان من أمام أحد الدكاكين، فقفز صبيٌّ من الدكان أمامهما وأخذ بيدي هذين الرجلين وساقهما نحو الدكان بقصد إيذائهما، ومع أن

هذين الرجلين كان باستطاعتهما أن يقتسما ذلك الصبي ويأكلاه كلقمة سائغة، إلّا أنهما لم يجرُؤا علىٰ إظهار غضبهما، وكانا كأسيرين في قبضة ذلك الطفل حتىٰ بادر شخص آخر، وعمل علىٰ انقاذهما من يده.

البوّاب القبيح المنظر:

عند مقبرة البقيع، بقعة الأئمة الأطهار، يوجد بوّاب قبيح المنظر يحمل بيده هراوه، ويتطاير الغضب من وجهه، ويأخذ من كلّ إيراني يروم الدخول إلىٰ هناك بقصد الزيارة صاحبقران[٢] واحداً، ولو أراد ذلك الحاج مثلاً الدخول خمس مرات يومياً عليه أن يدفع خمس قرانات، وحال دخوله إلىٰ هناك ولما يبدأ الزيارة بعد، يقول له البوّاب: أُخرج.

وأراد أحد الأشخاص يوماً أن يُقيم مجلساً للعزاء تحت قبة الأئمة الأطهار، فمنعه البواب، فأعطاه مبلغ روبيتين اثنتين وتساويان ستة آلاف دينار حتىٰ حصل علىٰ إذن بذلك.

وكلّ هذه الموانع والحجج هي من نصيب الايرانيين، ولا أحد يعترض طريق الاعراب أبداً.

ومن بين المميزات التي يحصل عليها الأعراب هي وكما رأيت بعينيّ في كلّ بلاد الجزيرة العربية، أنّه متىٰ ما شبَّ نزاعٌ بين اعرابيّ وأعجميّ، فللأعرابي الحقّ في أن يكيل للأعجمي كلّ أنواع السّبّ والشتم والتُهَم، في حين لا يحقُّ للأعجمي حتىٰ فتح فيه بسؤال أو جواب، وإلّا كان مصيره أن يهجم عليه الأعراب ويشبعوه ضرباً حتىٰ يهلك.

ففي أرض الحجاز كل مِلّة يحقّ لها أن تتنقّل بحرّية كاملة بزيّها إلّا أهل إيران، الذين إمّا أن يلبسوا لباساً عربياً أو لباساً أفندياً، ومع ذلك فبمجرّد أن ينكشف لهم أنّه أعجميّ، يتعرّض إلى السّخرية والاستهزاء!

ومن الأعمال التي أدّاها الحاج ميرزا حسن خان منسّق الأعمال هذه السنة في

مكّة هي أنَّ أحد الفلاحين الايرانيين أراد يوماً الطواف حول بيت الله والتّشرف بذلك، فربط مداسه بمنديله ووشاحه ووضعه علىٰ كتفه متدلياً خلف ظهره ودخل المسجد. فانتبه أحد خواجات الحرم إلىٰ ذلك، وبينما كان الفلاح يطوف فإذا بالخواجة يُنزل ضربات عديدة بهراوته علىٰ ظهر الفلاح، فشاهد أحد أقرباء المنسّق في الدار الايرانية، تلك الواقعة من بعيد، فأسرع وأخبر المنسّق بذلك. فقام المشار إليه لأخذ القصاص بإذن جناب الشريف وباشا مكّة وعاقبوا ذلك الخواجة في نفس المكان الذي قام هو فيه بضرب الفلاح بالهراوة. وهذه الأُمور تقع فقط للإيرانيين وحدهم دون غيرهم. فالأعراب وضعهم مختلف، فهم يحملون نعلهم تحت آباطهم ويدخلون المسجد دون أن يتعرّض لهم أحد بسوء.

والخلاصة أنّه ولسبب مجهول يتعرّض جماعة من الإيرانيين كلّ سنة إلى الأذى والمشقة والبلاء.

وبعد الخروج من المدينة الطيبة، تحركنا نحو الجبل، ولم تكن في الطريق من المدينة الى النجف الأشرف أيّة مدينة عامرة علىٰ جانبي الطريق سوىٰ «مستجدة» و«جبل» وبعض الخيم السود القليلة، التي تسكنها جماعة من الأعراب.

و«**مستجدة**» علىٰ بعد ثلاثة منازل قبل الجبل، وهي قرية عامرة فيها بساتين كثيرة من النّخل والحمضيات.

و«**جبل**» قصبة من إيالة «نجد» ويبلغ عدد سكانها حوالى (٢٠٠) عائلة وجبل هي مقرّ حكومة محمد الأمير. وتقع علىٰ خط عرض (٢٩) درجة شمالاً وخط طول (٦) درجات غرباً عن طهران، في أرض سهلية جرداء وحصوية، وأما سكانها فهم من الأعراب البدو.

نجد:

تقع بين (الاحساء) و(الحجاز) والأراضي الصحراوية، ويقطنها حوالى ثلاثمائة ألف نسمة، مناخها شديد الحرارة ولكنّه صحّي، وماؤها شحيح، ومعظم

أهلها من سكان البوادي، وتشكّل الخيل والجِمال والأغنام كلّ ما يملكون، والفرقة الوهابية خرجت من هذه الديار.

بعد طيّ الطريق الجبلي وصلنا الى النجف الأشرف في الرابع عشر من ربيع الأول، واستغرقت الرحلة ما يقارب الثمانين يوماً، وخلال هذه الفترة، ضلّ كثير من الحجّاج الأعاجم في صحاري الجزيرة العربية، وأصبحوا أسرىٰ لدىٰ:

- عبدالرحمن أمير حاج نيابة عن محمد أمير الجبل.
- متعهدي القوافل الماكرين، الذين لم يتورّعوا عن ارتكاب أنواع القبائح، عدا نفر قليل منهم مثل الحاج عباس القازي النجفي، الحاج اسماعيل الأصفهاني.
- وأخيراً، أسرىٰ بيد العُكّام الذين يُمسكون بزمام الجِمال، وهم أغنياء عن التعريف.

عادة محمد أمير الجبل هي أن يُرسل كلَّ عام قبيل موسم الحج شخصاً مثل عبدالرحمن، أو غلامه (قنبر) إلى النجف الأشرف، حتىٰ يسوق الحجّاج في الخامس من شهر ذي القعدة، ليصل بهم إلىٰ مكّة المكرّمة في الرابع من شهر ذي الحجة، وبالنظر إلىٰ أنّ عليه أن يمرّ بالقوافل بسلام خلال القبائل الأكثر وحشيةً منه، وأن يدفع لهم الرسوم، لذا فهو يأخذ من كلِّ راكب جَمَل ما يعادل خمسة عشر تومانا تسمىٰ (الأخوّة)، ويؤخذ من الأعراب إجمالاً نصف مبلغ الأخوّة، ومشاة الحجّاج معفون منذ القديم من دفع هذه الأتاوة، وعلى الرغم من أنّ المدينة الطيبة تقع علىٰ حافة الطريق، فهم لا يمرّون عليها ذهاباً، إلّا أنّهم يفعلون ذلك في الإياب، ويقطعون الطريق من نجد وحتى يصلوا بالقوافل الى النجف الأشرف، وأحياناً، يأخذون (الأخوّة) في الأربعين وحتىٰ أواخر شهر صفر على الأغلب وبنفس الطريقة، إلّا أنّهم لا ينفّذون ما يقولون.

كلّ عام، يعتدون علىٰ مشاة الحجاج المساكين، وفي هذا العام، قام

عبدالرحمن في كلّ منزل بجمع عدد من المشاة بوشاية من الحاج حمودي النجفي، وأمر بعضاً من الأعراب الأشدّ كفراً ونفاقاً، بأن يحملوا عليهم بالهراوات، ويشبعوهم ضرباً حتىٰ يقضي البعض نحبه تحت أيديهم، ويقوموا بنهب ما يمتلكون من دراهم ودنانير، حتىٰ أن متعهد القافلة الحاج جواد بن الحاج عبد، وهو من الرعايا الإيرانيين، قد استشهد هذا العام تحت ضرب الهراوة لمحمّد.

وأخيراً، لم يبقَ سوىٰ ٢٣ نفراً من الحجاج المشاة، وما إن علمتُ بذلك حتىٰ أرسلتُ في طلب عبدالرحمن، ووجهتُ إليه التهديدات قائلاً:

لو كان قادة دولة إيران يعلمون كيف أنكم بهذه القساوة والطمع، تتعاملون مع الحجاج الأعاجم؛ لمنعوا كليّاً الطريق الجبلي. ولقد توعّدته، وقلت له: إذا أمهلني الأجل فسأسجّل تفاصيل هذه المعاملة السيئة في دفتر مذكراتي، وسأعرضها علىٰ ولاة الأمر في ايران. وآخر الأمر، فقد أعطيته قطعة شال؛ لأنقذ بقية السيف من براثنه.

ومع هذا، فقد كانت تُفرض كلّ يوم وبمختلف الحُجج والأعذار، أتاوات من قِبل عبدالرحمن ومتعدي القوافل على الحجاج العجم، وكان الحاج حمودي يأخذها بأسوإ شكل، وكانوا إذا احتملوا وجود دينار في جيوب الحجاج، جالوا بهم في القفار حيارىٰ وعطشىٰ وجياعاً. وكلّ تلك المصائب تحدث خاصة أثناء العودة.

والحاج حمودي رجل من أهل النجف، وكان هو وأخوه جاسم يخرجان كلّ سنة من النجف مع بعض أقربائهم برفقة الحجيج، وهو رجل لا دين له ولا مذهب وكان يتبع مذهب كلّ جماعة يُرافقها. فهو شيعيٌّ في النجف، وسنيٌّ متعصّب في خيلِ أمير جبل، وشريك للّصوص في مخيّم الحجّاج، ورفيق القافلة والأمين والمشاور كذلك.

وأما عبدالرحمن فهو شخص ظالم وقاسي القلب، وكلّ ما يُصيب الحجاج من

الآلام والمصائب، فهي منه وإليه. ولو أنَّ هذا الرجل وأتباعه مُنعوا من مرافقة الحجاج على الأقل، لكان ذلك فوزاً عظيماً.

لذا فإنّي أرىٰ من الضروري أن ينبّه عامة الناس على أنَّ طريق الجبل ليس هو الطريق الوحيد الذي يوصل إلىٰ مكّة المكرّمة أو الرجوع منها، ولا يقتصر عليه أبداً. فالحمد لله هناك طرق عديدة آمنة ومفتوحة:

▣ طريق الشام السلطاني الذي يُشرف على المدينة الطيبة عند الذهاب.

▣ طريق إسلامبول (إسطانبول)، وعلى الحجاج الايرانيين أن يذهبوا عن طريق أنزلي نحو تغلب، وبعد اسطانبول يمرّون بالقرب من مصر ثمّ يصلون جدّة.

▣ طريق البصرة الذي سرت فيه.

▣ طريق بوشهر الذي يمكن الوصول عبره الىٰ جدّة خلال (١٥) يوماً، وعند الرجوع بعد زيارة المدينة، يمكن الذهاب عن طريق الشام أيضاً، أو عن طريق ميناء يَنْبُع، إذا كان آمناً؛ لأنه بالقرب من المدينة، حيث يمكن ركوب السفينة والذهاب إلى أيّ مكان آخر.

ينبُع:

ميناء في الحجاز، ونسبته الى المدينة كنسبة جدّة الىٰ مكّة، وهو عبارة عن قصبة محصورة، تبعد (١٧) فرسخاً الى الجنوب الغربي من المدينة. وترسو عنده الكثير من السفن إلّا أنّه غير آمن. فالناس هناك كالوحوش، وكلّما سنحت الفرصة لاتّخاذه معبراً كانت تتفاوت وتختلف المصاريف العامة ومدّة السّفر للحجاج.

كانت السفينة تتأهب للتحرّك من بغداد في النصف من شوّال، فكان الحجاج يصلون إلىٰ ينبُع في العشرين من ذي القعدة، ويصلون من المدينة إلىٰ مكّة خلال عشرة أيام أو أقل. وبعد الفراغ من الأعمال، من (١٥) إلىٰ (٢٠) ذي الحجة، يصعدون إلى السفينة من جدّة وكانوا يتّجهون إلىٰ ما شاءوا من الجهات، إلىٰ

بومباي، ومصر، وإسطانبول وبوشهر أو البصرة.

وأمّا إذاكان المقصد هو العتبات المقدّسة، فبالإمكان الوصول الىٰ بغداد من (١٥) إلىٰ (٢٠) من محرّم، وعلىٰ هذا كان الجهد ينصبّ علىٰ أن لا يُسلّم الحجاج أنفسهم بأيدي الطوائف الثلاث أو الأربع المتوحشة، وعندها سيقعون أسرىٰ عندهم، ويسلبون أرادتهم أو يُعرّضون حياتهم أو أموالهم إلى الهلاك، فيكون الجوع والعطش مصيرهم. ليت طريق الجبل يُمنع ويُغْلَق لعدّة سنوات من قِبَل رِجال الدولة دام عمرهم حتىٰ يستقرّ فيه النظام والأمن!

الهوامش :

(١) طائفة من أهل المدينة، وهم الساكنون في شارع أبي طالب حالياً، وأغلبهم من الشيعة.

(٢) نوع من العملة، كانت تُسَكُّ منذ عهد الأسرة الصفوية حتىٰ ناصر الدين شاه القاجاري، وكان رأس صاحبقران (وهو لقب بعض ملوك ايران) منقوشاً عليها.